محددات الأسلوب

(الاختيار)

تسعى الأسلوبية إلى "دراسة اختيارات الكاتب، التي تحقق للنّص أمرين، هما المتعة والقيمة الجمالية؛ فهي تغنى بالنص وتجعله محور اهتمامها، خلافاً للمناهج النقدية التي تتخذه وسيلة إلى غاية خارجية قد تتعلق بالظروف التاريخية أو المعطيات النفسية والاجتماعية، أو سواها مما قد يتصل بالمؤثر لا بالأثر في ذاته.

وهكذا يتبيّن أن مجال البحث الأسلوبي إنّما يقتصر على النّص ومكوّناته الداخلية ولا يتعداه إلى ما هو خارجي من العوامل المؤثرة، ولكنه لا يكتفي بملاحظة العلاقات القائمة بين الرموز اللسانية فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى العلاقة القائمة بين التفكير والتعبير؛ بحيث لا ينسى الكشف عن هذه العلاقة إلاّ بالنظر في الفكرة وفي التعبير معاً وبهذا فإن الدرس الأسلوبي يتنقل من مستوى التوصيف إلى مستوى الكشف عن أدبية النص ودلالاته الكامنة في أسلوبه.

فالأسلوبية، بذلك، هي دراسة للنص الأدبي في جوانبه الأسلوبية، انطلاقاً من "تحديد الوسائل التعبيرية المختلفة المكوِّنة له؛ مثل المفردات والصور والأوضاع النحوية والإيقاعية، ليصل الدارس إلى بواعثها النفسية وآثارها الجمالية فلا يعدو البحث الأسلوبي أن يكون تناولاً فنياً للظاهرة اللغوية وتقصياً للكثافة الشعورية أو العاطفية التي يشحن بها الناص خطابه الأدبي في استعماله النوعي؛ هذا ما يقرره عبد السلام المسدي حين يقول "إن مهمة الأسلوبية هي أن تتبع الشحن في الخطاب عامة، أو ما يسميه اللغويون بالتشويه الذي يصيب الكلام، والذي يحاول المتكلم أن يصيب به سامعه في ضربٍ من العدوى.

ينطلق البحث الأسلوبي في مقاربته النص الأدبي من المقولات التالية: – الاختيار – التركيب –الانزياح.

الاختيار:

ارتبط "الاختيار" بمفهوم الأسلوب، واعتبر حداً فاصلاً بين "الجمالي" و"غير الجمالي"؛ فالكلام لا يمكن أن يكتسب صفة الأسلوبية) إلا إذا تحققت فيه جملة من "الظواهر أو المسالك التعبيرية التي يؤثرها الشاعر أو الأديب دون بدائلها التي يمكن أن تسد مسدها) لأنها في نظره، دون تلك البدائل، أو أكثر ملاءمة لتصوير شعوره وأداء معانيه"، ومن ثم كان الأسلوب ذاته اختياراً، أي "اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه "أو هو" انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معيّن؛ فالاختيار الذي نقصده، هنا، هو الاختيار الأسلوبي وهو "ما يعرف بالاختيار النحويّ بالمعنى الشامل الذي يراعي النواحي الصوتية والصرفية والدلالية والتنظيمية.

ويكون هذا الاختيار حين يفضل المنشئ كلمة أو عبارة أو تركيباً يراه أصدق وأسلم في توصيل ما يريده

إن الاختيار يجعل من الأسلوب عملاً واعياً وقصدياً، فكل علامة لغوية من لفظ أو تركيب أو عبارة أو غيرها مما هو ضمن الخطاب تقوم بوظيفتها التي حددها لها المبدع؛ الأمر الذي ينفي عن الأسلوب العفوية أو الإلهام التي تتذرع بها بعض التيارات الأدبية والنقدية

وللاختيار صورٌ متعددة، منها ما يتم على مستوى اللفظ أو المعجم تفضيل لفظة ما على غيرها من البدائل)، ومنها ما يتم على مستوى التركيب النحو)؛ بحيث يفضل نمط ما من التركيب على غيره يعادله في أداء أصل المعنى ويجد هذا الفهم للاختيار في نظرية تشومسكي حول "البنية السطحية والمبنية العميقة" مستنداً، إذ يتحدد الأسلوب عند هؤلاء "بوصفه اختياراً أو استثماراً وتوظيفاً للطاقات الكامنة في اللّغة، إذ إنه يمكن تحديد هذه الطاقات وكشف أبعادها عن طريق، "قواعد التحويل"، وبذلك "تكون السمة الأسلوبية" هي الصورة المنتقاة من بين التحويلات الاختيارية) المتعادلة معها دلالياً والتي تعد، من هذه الزاوية، بدائل لها

ومن صور الاختيار وأصنافه ما ينشأ من التعبيرات المجازية، فالاختيار في هذا النوع يتجاوز اللفظ المفرد إلى التركيب باعتباره صياغة للكلمة "وفق نظام لتؤدي الصورة الأدبية وظيفتها التأثيرية والإبلاغية والجمالية.

فلا مناص لدارس الأسلوبية من تقصي مظاهر الاختيار وملامحه في النص الإبداعي، وصولاً إلى الوظيفة التأثيرية والإبلاغية والجمالية فيه.